بناء الشخصية في كتاب المُكَافأة وحُسْن العُقْبى

لأحمد بن يوسف الكاتب "ابن الدّاية"

د. عادل هنداوي شعبان

دكتوراه في الدراسات الأدبية، كلية الآداب، جامعة عين شمس

مدرس بمركز اللغات – الجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات

جمهورية مصر العربية

الهاتف: 25618472 – 01005286045

البريد الإلكتروني: dradelhendawy@gmail.com

الاستلام	29/1/2018	المراجعة	27/3/2018	النشر	30/4/2018

الملخص:

يُعنى البحث بدراسة بناء الشخصية في كتاب المُكافأة وحُسْن العُقْبَى لأحمد بن يوسف الكاتب "ابن الدَّاية"، ويهدف إلى كشف عناصر الإبداع الحكائي العربي في القرن الرابع الهجري. وقد ركَّز البحث على بناء الشخصية المحكيّة، بوصفها عنصرًا محوريًا تنبع منه، وتلتف حوله العناصر الحكائية الأخرى.

وجاء البحث في ثلاثة مباحث، تناول المبحث الأول، الوصف بأنواعه، أما البحث الثاني فتناول جانب التصوير، وعالج المبحث الأخير الشخصيات من خلال الحدث، ثم تأتي الخاتمة متضمنة أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم الهوامش، وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية:

الشخصية، التصوير، الحوار، الحَكْي، الوصف.

Building Characters in the book of" Reward and Beneficial Consequences"

By Ahmed Bin Yusuf Al katib known as " Ibn El Dayah"

Dr. Adel Hendawy Sha'ban

PhD in Arabic Literary Studies

Faculty of Arts – Ain-Shams University

Lecturer at the Languages Center,

Modern University, Egypt

Tel: 0225618472 – 01005286045

Email: dradelhendawy@gmail.com

Received	29/1/2018	Revised	27/3/2018	Published	30/4/2018

Abstract:

The research is mainly investigating building characters in the book of " Reward and beneficial Consequences " by Ahmed Bin Yusuf known as 'Ibn El Dayah '. The study aims at tracing the elements of Arab narrative creativity in the fourth Hijri century. The research focuses on building narrative characters as a pivotal element from which and around all other narrative components are structured.

There are three main research questions. The first tackles description with all its types while the second question deals with depiction, and the last one investigates building characters through incidents. Finally, there's a conclusion illustrating research results, then we have margins, and the list of sources and references.

Keywords:

Character - Depiction -Dialogue -Narration- Description.

مقدمة:

ظل الأدب العربي القديم - ولم يزل - مادة خصبة للدراسات الحكائية على كافة مستوياتها التصويرية والسرديَّة على حد سواء، حيث بلغ الاحتفاء بالتراث العربي مداه داخل البيئة الثقافية العربية تطبيقًا وتنظيرًا، بحيث بدا الحديث عن معرفة الأدب العربي لفن القصِّ ضربًا من السفسطائية يحسن السكوت عنه، بعد أن تجاوز الباحثون في الربع الأخير من القرن العشرين هذه الجزئية، وعمدوا إلى جمع التراث الحكائي العربي وقراءته قراءة جديدة وفق معطيات المناهج الحديثة؛ للكشف عن عناصر الإبداع الحكائي فيه، وإن كان ينقص تلك الدراسات الحديثة - في هذه الجزئية- النظرة الكلية على الأقل للتراث الحكائي في كلِّ عصر في بوتقة حكائية واحدة؛ لمعرفة الخصائص، ورصد خطوط التطوُّر.

ومن المؤكد أن تيار الحكي في تلك العصور قد جاء انعكاسًا لموقف عام، هو موقف القاص من أحداث عصره ومحيطه البيئي، وما تضمَّن من أحداث تردَّد صداها - بصورة مباشرة وغير مباشرة - في ثنايا الحكي. هذا الموقف أو بالأدق علاقة المبدع بالعمل هو الذي عناه الدكتور محمد غنيمي هلال بقوله: "هو علاقة الكائن الحي ببيئته وبالآخرين في وقتٍ ومكانٍ محددين، وبهذه العلاقة يكشف الإنسان عما يحيط به ... ولا سبيل إلى اتخاذ موقف إلا بمشروع يقوم به الفرد مرتبطًا بما يحيط به من عوامل يتجاوزها بمشروعه إلى غاية يحاول بها التغيير من حالته الحاضرة "[1]

وفي هذا الإطار جاء البحث الحالي، متوجهًا إلى فترة من أخصب فترات التراث العربي عامة والتراث العربي الحكائي خاصة، ألا وهي فترة القرن الرابع الهجري التي شهدت ازدهارًا واضحًا لفن الحكي بأشكاله المتعددة من أخبار ومرويات، ورسائل ومقامات، وأدب رحلة، وتراجم "كما شهد ثراءً في التقنيات القصصية التي ساهمت في إنتاجها بيئات متعددة"[2]

وقد رأيت - استجابة للمنهج العلمي الذي يميل إلى التحديد- أن أقْصِرَ هذا البحث على نوع من أنواع الحكي في ذلك العصر، ألا وهو فن الخبر، الذي نعنى به "رسالة مشكَّلة من وحدات لغوية مترابطة دالة على حدث تفصيلي له شخصياته الفاعلة، وحيزه المكاني، وتتابعه الزماني، يسعى مُرسِلُه إلى بث قيمة ما، لها أهميتها بالنسبة للمُستقبِل عن طريق التأثير، من خلال نظام اتِّصال يستدعي صوتًا سابقًا على المُرسِل، ويضفي على الحدث صبغة واقعية، وعملية الاتصال تحاكي الحديث الشفوي المباشر"[3]

ويُعدُّ فن الخبر ألصق أنواع الحكاية في الثقافة العربية، ومعظم إنتاجها الحكائي يقع في إطاره ،فهو ابنها البكر والأثير الذي انحدر إليه بثنائيته المأثورة، السند والمتن من ميدانيْن كان لهما أكبر الأثر في تطور الحكي أولهما: الحديث النبوي وثانيهما: الخبر التاريخي[4] وليس أدل على هذه الأهمية من كثرة الكتب المؤلَّفة فيها مثل: (البخلاء) للجاحظ، وأخبار الطفيليين (للخطيب البغدادي)، وأخبار الحمقى والمغفلين (لابن القيم الجوزي) وغيرها ... يجمع بينها" أن الإسناد فيها كان في جلّ الحالات عنصرًا ثابتًا يمكن اعتباره مُقوِّمًا أساسيًّا من مقومات الخبر."[5]

وقد وقع الاختيار- من بين هذه المؤلفات- على كتاب (المكافأة وحُسن العُقْبى) لابن الدّاية المصري، وقد رُوعِيَ في اختيار هذا الكتاب أن يكون محقَّقًا تحقيقًا جيّدًا؛ حتى ينصرف الجهد لدراسة الشخصية فيه دون الانشغال بمشاكل التحقيق[6] ورُوعِي- أيضًا- أن يكون الكتاب خالصًا للحكاية الخبرية دون غيرها من أشكال القص النثري الأخرى. فمع"ارتقاء الحياة وشيوع الثقافة، وازدهارالترجمة خلال العصر العباسي، وتدفُّق الثروات، وتناقض الواقع، من ثراء فاحش وفقر مدقع ومن زُهد خاشع وفجورٍ غير محتشم، بدأت أحاديث السَّمر في مجالس الخاصة، وبين حلقات العامة، تزدهر وتتنوع ، ولم تعد مشدودة إلى الأمس وحده، ولا مرتبطة بالحروب والأمجاد فحسب، ولا تُقال مُتْعةً أو إزجاءً للفراغ، وإنما أصبحت سُلَّمًا للنقد الاجتماعي، أوالتصوير الأدبي، لقد دخل فن القص دائرة الإبداع"[7]

وقد تضمَّن كتاب (المكافأة وحُسْن العُقْبى) عناصر حكائية عِدَّة، يأتي في مقدمتها الشخصيات[8] التي تعد العنصر المحوري فيه والذي تنبع منه، وتلتف حوله العناصر الحكائية الأخرى. فمتن الكتاب وما حَواهُ من شخصيات مستقلة تعبِّر عن نفسها، وما قامت به من أحداث، يُعَدُّ تجسيدًا لهيمنة الشخصية على باقي عناصر الحكي الأخرى، من خلال عدد من المواقف الخاصة بها، التي اهتمَّ بها ابنُ الدّاية، وهي شخصيات لا تعرف الانطواء، وإنما هي شخصيات ذات صلات اجتماعية متعددة بتعدد الأخبار والأحداث، بحيث يمكن أن نطلق على أخبار الكتاب اسم أخبار حكاية الشخصية؛ لأن كل خبر له شخصية ومضمون خاص بها يمثل وحدتها . وليس أدلّ على دور الشخصية في كتاب المكافأة مِن أن كل خبر يأتي مستهلًّا في - الغالب- باسم صاحبه ونَسَبه تبعًا لمقتضي عنصر الإسناد والمتن الديني، ويتبعه بأخباره، بحيث غَدتْ الشخصية في الكتاب وِحْدة مفصلية ترتكز عليها وحدة الخبر .

أسباب اختيار الموضوع:

- قلة الدراسات المتعلقة بكتاب (المكافأة وحُسن العُقْبى) إذ لم تُفرد له سوى دراسة أكاديمية - على قدر اطِّلاعي - [9] إلى جانب عدد قليل من المقالات لا ترتقي ومكانة الكتاب في التراث الحكائي العربي.
- إن كتاب المكافأة وحُسن العُقْبى يموج بشخصيات عدة- تبعًا لمحتوى كل قسم- ذات ملامح بنائية خاصة، لم تلق أي اهتمام في جانبيْها الداخلي والخارجي.
- إدراك ابن الدّاية لمفتاح الشخصية المصرية التي تكمن في (العدالة) التي سعى إليها المصري منذ قديم الأزل.

ويهدف البحث الحالي إلى الإجابة على سؤالٍ رئيس، هو: كيف استطاع ابن الدّاية تشكيل الشخصية، وبنائها في كتاب (المكافأة وحُسن العُقْبى)؟ وقد اعتمد الباحث في ذلك على المنهج الوصفي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مبحثين تسبقهما مقدمة، وتليهما خاتمة، تناولت في المقدمة - بصورة موجزة- القص الحكائي العربي، ونبذه عن كتاب المكافأة، والشخصية فيه،وأسباب اختيارالموضوع.

المبحث الأول بعنوان: وصف الشخصية، أتناول فيه :1- الوصف الاسمي 2- الوصف الخارجي 3- الوصف الاجتماعي 4- الوصف النفسي.

المبحث الثاني: تصوير الشخصية ، ويتضمن : 1- التصوير المباشر 2- الحوار 3- الشخصية من خلال الحدث. أما الخاتمة، فتتضمن ملخَّصًا لمحتوى البحث، وأهم النتائج التي توصَّل إليها.

المبحث الأول: الوصف

يتَّسم كتاب (المكافأة وحُسن العُقْبى) بكثرة عدد الشخصيات وتنوعها، ويرجع هذا إلى أمرين، أولهما: أن كل قسم من أقسام الكتاب الثلاثة يحمل شخصيات مختلفة عن الشخصيات التي تحملها الأقسام الأخرى، والآخر : كثرة الأخبار الفرعية المتولدة عن الخبر الرئيس، ممَّا يؤدي إلى كثرة الشخصيات.

وقد أدى كثرة الشخصيات وتنوعها، إلى كثرة الوسائل التي تصور ملامحها داخل الأخبار من خلال مستويات عدة، قد تجتمع كلها في رسم ملامح الشخصية لا سيما الرئيسة منها، وقد يكتفى ببعضها في هذا التحديد. وأول هذه الوسائل الوصف الخارجي الشكلي، والداخلي السلوكي، القائم على الاختيار والانتقاء وليس الاستقصاء، حيث يقتصر ابن الدّاية في

أوصافه على سمات معينة في الشخصية، ويرجع ذلك إلى أن الأخبار ذات غاية تعليمية وأخلاقية، أشار إليها ابن الدّاية في مقدمة كتابه بقوله:" وقد رأيتك لاتزيد مَنْ رغبت إليه - فيما تحدوه على بِرّك، وتحثُّه لما أغفل من أمرك- على نصَّ مكارم مَنْ سلف، وترى أنه يهش إلى مساجلتهم، فلا تبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه، ولا تُوجِد في الراغب فضيلة تحثُّه على شفيع قصده . ولو عدلت عن مكارم مَنْ رغبت إليه، إلى حُسن مكافأة منْ أُنعم عليه، لكانت لك ذرائع يمتُّ بها إلى الراغب، تُوجِد المرغوب إليه سبيلًا إلى الإنعام ،وتفسح أمله في مواترة الإحسان"[10] ومن ثمَّ فإن الاهتمام ينصبُّ على الجانب الأخلاقي والسلوكي، الذي يُنتج أفعالها الخيِّرة التي تستحق بها المكافأة على الحسن، وحُسن العُقْبى، أو أفعالها الشريرة التي توجب لها الجزاء ،بحيث يصبح لكل شخصية ملامحها الخاصة، ولذا فإن ابن الدّاية يفاجئ المتلقي باهتمامه الشديد بأفعال الشخصيات، وهو اهتمام ينبع من كونها أفعالًا لشخصيات محددَّة تتَّسمُ بالحُسن أو القبح، ومن ثم فلا تهميش لها.

وتبرز عناية ابن الدّاية بشخصيات كتابه منذ عتبة العنوان، الذي يشير إلى شخصيات تأتي أفعالًا تدرجها ضمن مَنْ يستحقون المكافأة أو العقاب، فهي شخصيات عادية على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية، ولذا خلا الكتاب من" الشخصيات الخرافية التي تأتي بأفعال خارقة، فقد كان هدف المؤلف أن يقرر حقيقة التكافل الاجتماعي وجدواه، من خلال واقع حقيقي مباشر، دون رموز أو غموض"[11] باستثناء خبر واحد، هو الخبر رقم (62) الذي يحمل في طياته بعض سمة الخرافة، أو ما يشبه حكايات السندباد. يدور الخبر حول تاجر عربي غرقت سفينته فدفعته الأمواج إلى بلاد الهند، وهناك دارت أحداث أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع[12].

ويعود اهتمام ابن الدّاية بوصف شخصيات كتابه إلى إدراكه أنها مصدر الحياة في أخباره، وعنها تنبعث الأفعال، وبها تتحرك الأحداث، حتى وإن تشابهت الأفعال المُوجِبة للمكافأة أو العقاب، ومع ذلك نجد أننا "بإزاء تكرارات تتشابك مع غيرها لدى أفعال آخرين، بما يُوجِد صورة متشابكة، لكنها لا تقل عمقًا عن الفعل الدرامي، وأبعاده الظاهرة والقصيّة، فثمة فاعل أو أكثر له تجربته وخواطره وقناعاته، وهذا الفاعل لم يعد يتحرك حسب محمولات ما فحسب، وإنما تشكَّلت هذه في داخله، بصفتها مواصفاته الشخصية في الأصل"[13].

ويعود اهتمامه بوصف الشخصية - أيضًا- إلى أنه لا يهدف فقط إلى إثارة الامتنان من صنّاع المعروف أو إظهار السخط والامتعاض من صنّاع القبح، وإنما يهدف في الأساس إلى إصلاح النفوس،وتحقيق التكافل والعدالة، ومن ثمَّ يهتم بإبراز الشخصية- خاصة القبيحة- لتصبح موضع نقد المجتمع، وينصبُّ عليها سخط المتلقي، بوصفها فاعلة الفعل، مما يعني إمكانية تغييرها وتهذيبها.

هذا الاهتمام بوصف الشخصية من قِبَل ابن الدّاية، جعل العالم الحكائي الذي تعكسه الأخبار- طبقًا لطبيعة الشخصيات التي تُؤسِّس هذا العالم - هو الشغل الشاغل له، ويحاول اكتشافها " مرةً بأسماء الأشخاص - إن كانوا من الأعلام المعروفين، أو بقوا في الذاكرة وإن لم يكونوا أعلامًا - ومرةً بأوصافهم فقط إن كانت أسماؤهم قد نسيت ... وهذا العرض الطبيعي للأشخاص يشعرك أنك معهم، ولذلك تكتفي بالقليل من الوصف..."[14] ويتوزع وصف ابن الدّاية للشخصيات في كتابه على عصور تاريخية مختلفة تمتدُّ منذ العصر الجاهلي حتى العصر العباسي، ويحظى العصر العباسي- من بينها- بالنصيب الأكبر من حيث وصف رجاله المنتمين إليه، فهو العصر الذي عاش فيه المؤلف في ظل الدولة الطولونية.

أولًا الوصف الاسمي:

يصور القاص الحياة بما فيها من قضايا واهتمامات، ولذا يهتم باختيار أسماء شخصياته؛ لأن اسم البطل أو الشخصية له علاقة كبيرة بتوضيح هذه الشخصية، وتعميق دورها عن طريق رسم شكل معين لها، يأتي في مقدمتها التسمية، أو المرجعية الاسمية - وهي أبسط سمات التشخيص - لأن الاسم يُعدُّ من أبرز العناصر الدالة على الشخصية؛ لأنه ينقلها لغويًّا من "النكرة إلى المعرفة لتكون (عَلَمًا)، والعلم أعرف المعارف - كما يذكر النحاة- وعلى المستوى الفني ينقل المحكي عنه (الشخص) إلى (الشخصية) من العموم والتسطُّح وعدم التحديد إلى التخصص والعمق والوضوح الذاتي"[15] فعندما يجيد القاص انتقاء أسماء شخصياته بدقَّة، فإنه يكون مبدعًا، وقد يبثُّ - من خلال هذه الأسماء التي ينتقيها بمهارة، ويوظفها بموهبة - الكثيرَ من الدلائل المكونة للشخصية المحكيَّة، مما يسهم في توصيل ما يريده من إشارات وأفكار إلى المتلقي. ومن ثم، فقد اهتمَّ ابن الدّاية باختيار أسماء شخصياته في الغالب، وأفسح المجال أمامها لكي تقوم بأدوارها المنوطة بها في الأحداث، وخص هذه الشخصيات بالأسماء، إضافة إلى الكُنى؛ لكونها أطرافًا في حوارات تتسم بالحديث عن الإحسان أو الإساءة، مما أعطى للخبر القصصي في الكتاب خصوصية؛ فالخبر في "أصله تاريخ، فهو نوع من التفصيل لحادث ذي قيمة في حياة الجماعة، وبناءً على ذلك فإن راويهِ يتحرى صدق الرواية، ويسوق خبره للعلم لا للتأثير، وسواء أكان الخبر في نفسه صادقًا أم كاذبًا، فإن الراوي لا يعمد إلى التنميق الفني في روايته، أو ليس من شأنه أن يعمد إلى شيء من ذلك"[16] وهذا يعني أن ابن الدّاية وغيره من رواد الخبر القصصي، ابتغى من وراء المرجعية الاسمية، إثبات أن ما يتعلق بالشخصية المحكيَّة في الخبر الذي يورده حقيقي، وهذا يفسِّر لنا السِّر وراء إصرار ابن الدّاية - في بعض الأخبار - على التقيُّد بتقاليد الرواية من حيث الإسناد، مع ميله في بعض الأخبار الأخرى إلى التخفُّف منها، وهذا التخفف لا يعني أن عالم الكتاب "عالم كاذب، بل إن صدقه أعظم من الحقيقة نفسها. فحين لا يملك الإنسان تغيير الواقع بالفعل يغيره بالكلمة الفعل"[17].

وأسماء الشخصيات في كتاب (المكافأة) ذات طبيعة عربية - باستثناء الأخبار (33) و (39) و(49) فقد ذكر فيها أسماء غير عربية مثل: فيروز ونقفور[18] تتفق دلالتها مع طباع الشخصية، والدور الذي تؤديه في الأحداث. وتظهرالمرجعية الاسمية لشخصيات كتاب (المكافأة) من خلال استهلال الأخبار - في أغلبها - باسم الشخصية ونسبها؛ لأنه لا يتحدث عن شخصيات من وحي خياله، وإنما هي شخصيات عاصرها، أو سمع عنها. وسنكتفي هنا بإيراد بعض النماذج على الوصف بالاسم نحو قوله في الخبر الخامس: "وحدثني عمّي إسحاق بن إبراهيم، قال: انتظرتُ أبا عبد الله الواسطي - كاتب أحمد بن طولون - في داره حتى رجع من عند أحمد بن طولون، فأوصل إليه بعض الحجَّاب ثَبَتَ من وقف بالباب، فرأى فيه إسماعيل بن أسباط، فسأل عنه، فقيل له: وقف بالباب طويلًا وانصرف، فقال: إن هذا الرجل ممَّن عَمَر هذه المنزلة مدة طويلة، ولست أشك أن مجيئه لحاجة له، ومن الجميل أن أركب إليه فأقتضيه حوائجه، وأبلغ فيها محبته"[19] الملاحظ في هذا الخبر أن ابن الدّاية لم يعمد إلى ذكر نسب أبي عبد الله الواسطي، وإنما اكتفى بذكر وصف له بأنه (كاتب أحمد بن طولون) ممّا يدل على مكانته، وهذا يفسر لنا قول إسحاق بن إبراهيم في مستهل الخبر (انتظرتُ) ولم يكن إسحاق بن إبراهيم وحده هو الذي ينتظر، فهناك – أيضًا - إسماعيل بن أسباط، الذي يبدو أن له مكانة عند أبي عبد الله الواسطي، جعلت كاتب ابن طولون يذهب إليه ليقضيه حاجته، وقد جاء الحوار بينه و إسحاق بن إبراهيم ومَنْ بعده مع إسماعيل بن أسباط، متَّسمًا بالألفة والحميمية.

ويعمد ابن الدّاية في مواضع من كتابه إيراد الخبر بطرق متعددة يذكر فيها النَّسب، نحو قوله في الخبر رقم (33): "حدثني أحمد بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جدّه مولى عبد الله بن المقفع، أن عبد الله حدَّثه قال: ..."[20] عمد ابن الدّاية في هذا الخبر إلى رواية نسب أحمد بن يوسف مفصَّلا قدر استطاعته؛ ليعكس رغبته - في إطار عالمه الفني (المكافأة) - إلغاء تلك العنصرية التي كانت سائدة وقته، وتمثلت في إعلاء شأن العنصر العربي على حساب غيره من الأجناس أو العكس، خاصة أن ابن الدّاية قضى معظم عمره في ظل العصر العباسي الثاني، فأدركته ظاهرة الشعوبية التي ظلت مستعرة طيلة العصرين العباسيين الأول والثاني[21] فجاء كتابه محتويًا على بعض شخصيات ذات أصولٍ غير عربية (موالي) إلى جوار أسماء الشخصيات العربية الأصيلة؛ ليكشف عن شخصيته المعتدلة التي لا تعرف التعصب، تمشيًا مع الشخصية المصرية التي نشأ في حضنها، وتشرَّب منها تطلُّعها إلى الاعتدال والعدالة، وحتي في الحالات القلائل التي لا يذكر فيها ابن الدّاية اسم الشخصية التي يدور فيها الخبر، يمنح الشخصية ما يجعلها متفرِّدة عن غيرها، فيسبغ عليها من الأوصاف ما يجعلها تكشف - على الأقل لأهل زمانها - عن اسمها، نحو ما جاء في الخبر رقم (14) من حكاية المؤلف مع بعض التجار: "قال: وطالبني بعض عمَّال الخراج بمصر بمال زاد على ما في حاصلي، فاحتجت إلى مُعاملة بعض التجّار عليه فدللت على رجل من أهل الشام يعامل برهون، فصار إليَّ - وأنا في بيت المال - منه شيخ حسن الصورة جميل اللقاء"[22].

لم يصرح ابن الدّاية في هذا الخبر باسم ذلك الرجل الشامي الذي يعامل بالرَّهْن، واكتفى بذكر بعض صفاته (شيخ حسن الصورة،جميل اللقاء). فهو يعمي على الشخصية دون أن يسميها، ربما لأنها معروفة لأهل زمانه، أو لأن معرفة اسمها لا يهم المتلقي الذي يركز على أفعالها.

وقد تأتي الشخصية مقترنة بياء النسب دون أن يحدد لها اسما معينا وذلك للدلالة على الهوية مطلقا وكأن الصفات الملحقة بالشخصية تشمل كل من تنتسب هي إليه نحو ما جاء في الخبر رقم (20) من قوله: "حدثني هارون بن ملُّول، قال حدثني ياسين بن زرارة قال: كان ببعض أرياف مصر نصرانيٌّ من أهلها كثير المال، فاشي النعمة، سمْح النفس، وكانت له دار ضيافة، وجرايات واسعة على ذوي الستر بالفسطاط، فهرب من المتوكل رجل - كنَّى عن اسمه - خطير المنزلة، لميلٍ كان من المنتصر إليه، تبرأ من حاشيته ولبس جُبَّة صوف، فانتهى به المسير إلى ضياع النَّصراني"[23]. فياء النسب في قوله (نصرانيّ) وكذلك عدم ذكر الرجل الهارب، يأتيان بمثابة المفتاح الذي يفتح للمتلقي على فضاء أوسع من أنت يكون محصورا في شخصية متعينة ، فالرجل النصراني (كثير المال، فاشي النعمة، سمح النفس، والرجل الهارب (خطير المنزلة). ولا تقتصر دلالة هاتين الشخصيتين على الزمن فقط، وإنما يتجاوز مدلولهما إلى مدى التسامح الذي عرفته مصر طيلة تاريخها بين المسلمين والنصارى. وأغلب ظني أن إصرار ابن الدّاية على عدم ذكرأسماء بعض الشخصيات، والاكتفاء بذكر بعض أوصافها، يعود - في الغالب - إلى إجلاله لها، أو خوفه منها، فيأتي بأوصافها ليكشفها أمام المجتمع، فهذه الأوصاف - وإن لم تحدد الأسماء تحديدًا دقيقًا - تحرك الظنون في اتجاههم.

ثانيًا الوصف الخارجي:

نعنى بالوصف الخارجي للشخصية ما يتعلق بالمظهر الخارجي للشخصية: التكوين الجسدي، الملابس، العمر الزمني ... وغير ذلك ممّا يتصل بالشكل الخارجي الذي تكون عليه الشخصية الحكائية. وقد جاء الوصف الخارجي للشخصية في كتاب (المكافأة) مقتضبًا قائمًا على انتقاء الأوصاف، أو النعوت المرافقة لها والمتعلقة بها، وهو الأمر الذي اتَّفق عليه المُنَظِّرون من أن هذه الصفات أو القرائن تهدف إلى "وصف الأشياء، وإلى تحديد هوية الأبطال. فالقرينة إذًا تحدد طباع

الأشخاص ونفسيتهم، وهي لا تنبيء بأي حدث معين، بل توصف جوّ سير الأحداث"[24] ويمكن القول بأن الشخصية في أخبار (المكافأة) لم تعرف طفولتها، وإنما قدَّمها ابن الدّاية في طور النضج.

ويلحظ المُتلقّي الأوصاف الخارجية بداية من استهلال الخبر، وهذا شائع في كثير من أخبار (المكافأة) مثال ذلك ما جاء في الخبر رقم (17) من حكاية محمد بن يزيد وأحد المتلصصين من قوله على لسان محمد بن يزيد: "أطلق جماعة من حبس أحمد بن طولون، كانت قد وقعت بهم ظنَّةٌ بالتَّلصُّص، وكانوا ينزلون (كورة أهناس)، فإني عند بعض أصحاب الأكسية حتى وافاه غلام أصغر، خبيث المنظر، متمكن من نفسه، من الخارجين من الحبس، فرحَّب به، وجلس عنده وهنأه بسلامته، ثم سأل عن حاله، فقال: خرجت من الحبس كما تراني، وما معي نفقة تبلُّغني منزلي، فقلت له: ما اسمك؟ فقال: مسافر ..."[25].

بعد أن ذكر ابن الدّاية على لسان الراوي (محمد بن يزيد) بعض المتعلقات الوصفية الخارجية الخاصة بشخصية أحد المتلصصين بطل الخبر، فوصفه بأنه (غلام أصغر، خبيث المنظر، متمكن من نفسه) وحالته المادية (ما معي نفقة تبلُّغني منزلي) فبعد هذه الصفات ذكر الراوي المرجعية الاسمية للبطل (مسافر) ولعل وجود هذه الأوصاف الخارجية إلى جوار تلك المرجعية الاسمية - التي اكتفى فيها بالاسم الأول فقط - تظل ملازمة للشخصية طوال الخبر، يدل على ذلك أن تلك الشخصية المجبولة على الخبث لم تستطع أن تتخلص منه، إذ سرعان ما عادت إلى سيرتها الأولى من اللصوصية" فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية (أهناس والهنسا) بتسلُّط رجل من اللصوص في جمع كثير، على كثير من المواضع وكسبهم الضياع ... فإنا بنواحي المحرَّقة، حتى لقينا قطعة من اللصوص، فساقتنا بأسرنا إلى موضع منقطع عن المارَّة، وفيه شاب أصغر راكب فرس، ومعه مقدار خمسة فوارس، فعرضت الجماعة عليه إلى أن بلغني، فتأملته فوجدته مسافرا..."[26] ومن ثمَّ فقد ساهم الوصف الخارجي في مستهل الخبر - إلى حد كبير- في تهيئة المناخ الخاص بكل أحداث الخبر بعد ذلك، فوصْف الشخصية من الخارج في هذا الخبر- إذن- مهم للغاية، حيث إن الشكل الخارجي للبطل هو محور مأساته، فهو يلقب بـ(مسافر) بكل ما تحمله الكلمة من دلالات الترحال، فهو اسم على مسمى- كما قيل- لذا كان من الضروري أن يصف الراوي تلك الشخصية من الخارج، بل إن تكوينه الخارجي له أثر في الأفعال التي قام بها بعد ذلك، والتي أتت انعكاسًا لهذه الصفات، وهو ما يضفي عليها طابعًا التصاقيًّا بالبطل، بحيث تكون أفعاله بعد ذلك نتيجة للصفات الخارجية التي استهل بها ابن الدّاية الخبر.

ومن الأخبار الأخرى التي اهتمَّ فيها ابن الدّاية بوصف الشخصية من الخارج الخبر رقم (37) من حكاية عامل متسلط، والتي استهلها بقوله: "وسمعتُ أبا عبيد علي بن الحسين القاضي يحدّث قال: كانت لي بواسط حصة أؤدي عنها إلى السلطان خرجًا، فقدم علينا عامل قد جمع من الظُّلم، وسوء التسلُّط، وفظاعة الطَّبع"[27] فهذا الوصف الخارجي لشخصية العامل المتسلط جمع - على اقتضابه - بين الوصفين الخارجي والداخلي، ليصور بدقة الهيئة التي عليها تلك الشخصية، وهي هيئة تناسب القائمين على أمر جباية المال، بحيث تضفي على تلك الشخصية صفات حسِّية ومعنوية تجعل من كلّ جابٍ نموذجًا للقبح المعنوي والحسّي في آن واحد، فما دمنا أمام نماذج للجُباة غليظي الطباع، فلابد أن ينزل البلاء بالناس.

وقد جاء الوصف الخارجي لذلك العامل في بداية الخبر للتشويق دون الإفصاح عن اسمها، مما يمنحها نوعًا من الشراسة، اكتسبته مما تأتي به من أفعال "فجمع المعاملين بأسرهم على التَّحيّل له بما لا يُوصل إليه من أملاكهم، ولا يستحقّه عليهم، فضرب قومًا واستخفَّ بآخرين"[28].

وقد يجيء الوصف الخارجي لتوضيح ما آلت إليه الشخصية من تغيُّر حالها كما في الخبر رقم (41) من حكاية أحد موالي العباسيين وأُمويّ "رأيتُ مشايخنا مجتمعين على أمر لحقه أسلافهم: أنه كان يسكن بحمص شاب من أهل العراق، حسن الصورة، ليّن العريكة، فأقام معهم مدّة، ثم صار الأمر بعد ذلك إلى بني العباس، فتقلَّد ذلك الفتى حمص، وكان مولى من موالي أبي العباس، فلما دخلها قصد إلى دار رئيس كان بها - من أصحاب بني أُميَّة - فذبحه فيها وجماعة من غلمانه ثم خرج"[29].

بعد أن ذكر ابن الدّاية على لسان راوي الخبر (نافع بن مصقلة) بعض الصفات الخارجية لشخصية البطل - دون أن يذكر له اسمًا - (حسن الصورة، ليّن العريكة) والموطن الذي كانت تعيش فيه (حمص) وهي صفات تدلُّ على الوداعة، أشار بعد ذلك إلى ما آلت إليه تلك الشخصية من الشراسة عندما آل الأمر إلى بني العباس، فذكر وضعية الشخصية الاجتماعية (مولى من موالي أبي العباس) وربما تكون هذه الوضعية هي المفسر لما أقدمت عليه من أفعال - ذبح الأموي ورجاله - تناقض سيرته الأولى في مستهل الخبر.

إن المتأمل في الأمثلة التي ذكرناها للوصف الخارجي للشخصيات في كتاب المكافأة يجد حرص ابن الدّاية على إبرازها بعد اسم الشخصية مباشرة كدليل عليها، أو قبله (كما هو الحال في شخصية مسافر)؛ ليضعها أمام المتلقِّي مباشرة بوصفها نموذجًا إنسانيًّا يتكرر في كل زمان ومكان، بحيث تعكس هذه الصفات الأفعال التي تقوم بها تلك الشخصيّات، بحيث يكون الظهور الأول لها في مستهلّ الأخبار والأحداث مصحوبًا بوصف يكشف عن ملامحها، ثم تُقدم بقيّة ملامحها تدريجيًّا مع تقدُّم الأحداث.

وعلى الرغم من اقتضاب الوصف الخارجي فإنني أرَى أنَّ مرجع ذلك إلى سببين: الأول، اهتمامه بمشاكل مجتمعه، إيمانًا منه - فيما أظن - بأن الوصف القليل قد يعطي دلالات كثيرة تُؤَوَّل بطرق كثيرة، وفي هذا إغناء للوصف مع قلَّة ألفاظه. أما السبب الثاني، فيرجع إلى رغبة ابن الدّاية في مشاركة المتلقِّي في استنتاج باقي الأوصاف الأخرى للشخصية وصياغتها، ممّا يؤكد أن المتلقِّي يُعَدُّ شريكًا فعّالًا في إنتاج النص الحكائي، من خلال اكتشاف عالمه، والكشف عن أفق القاص ورؤيته، باعتبار أن النّص الحكائي هو منطقة مشتركة بين المبدع والمتلقي، وبهذا يتحول المتلقي من حالة التلقِّي للرسالة الخبريَّة بما فيها من سلبية إلى حالة إيجابية من خلال مشاركته في إكمال النص وإنتاجه.

ثالثًا الوصف الاجتماعي:

ونَعنى به الوسط الاجتماعي المحيط بالشخصيَّة ويشمل المكانة الاجتماعيَّة ودورها الحياتي، وأهميتها في الوسط الاجتماعي، وثقافتها ... فكل ذلك له أثر واضح في تكوين الشخصية، وله دلالة قويّة على السمات الخاصة بها ممّا يسهم في بنائها.[30] فمن ناحية المحيط البشري الذي تتعامل معه الشخصيَّة، فله دلالة قويّة على السمات الخاصة بها، مما يسهم في تصويرها؛ فالفئات الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية تدلّ على سماتها. يظهر هذا الوصف الاجتماعي في الخبر رقم (11) من حكاية ابن الدّاية مع أحد العباسيين من ولد المأمون من قوله: ونزل في حارتنا غلام أمْرَد تأخذه العين، وكنت أُسلِّم عليه إذا اجتزتُ به، كما أفعل هذا بغيره من جيرتي، فانصرفت يومًا إلى منزلي فوجدته قائمًا على بابه، فدفع إليَّ رقعة يذكر فيها أنه عباسيٌّ من ولد المأمون، ويسألني فيها برَّه"[31] جمع ابن الدّاية بين الوصفين الخارجي (غلام أمرد تأخذه العين)، والاجتماعي (عباسي من ولد المأمون) لزيادة وصف الشخصية، فإن ذلك الغلام العباسي الذي يضارع جمال وجهه علو مكانته الاجتماعية، وكأنما أرادت الطبيعة أن تهب له شيئًا يتعزَّى به، بعد أن تقلَّبت به الأحوال، فابن الدّاية يوضح هنا مدَى قيمة هذه الشخصية من الناحيتين الاجتماعية والجسمية الخارجية، وأن طلبه بالبر إليه لا

ينتقص من مكانته، وهو طلب فيه عِزَّة وإباء لا طلب تسوُّل وتنطُّع. ولم يغب حضور شخصية المرأة عن الوصف الاجتماعي - على ندرته وقلّته - في كتاب المكافأة، ومن أوضح النماذج على ذلك شخصية (الخَيْزُران) والدة هارون الرشيد، في الخبر رقم (48) من حكايتها مع مُريَّة زوج هشام بن عبد الملك، ثم مروان بن محمد بعده، حيث جاء فيه: "وحدثني يوسف بن إبراهيم (والدي) قال: حدثني إبراهيم بن المهدي: أنه دخل على الخيزران أم الرشيد، فوجدها جالسة في الدار المعروفة بها - وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها - على نمط أرمينيّ، والنمط على بساط أرمينيّ، وعن يمين النمط ويساره نمارق أرمينية، وعلى أعلى نمرقة منها زينب بنت سليمان بن علي ... إذ وقفت امرأة على طرف البساط فسلمت ثم قالت: يا زوج أمير المؤمنين، أنا مُريَّة زوج هشام بن عبد الملك، ثم مروان بن محمد من بعده نكَبَها الزمن، وزلَّتْ بها النَّعْلُ حتى أصارها إلى عارية، ما تستتر به ممّا عليها، فتبيَّنت الدموع تدور في عين الخيزران، وخافت زينب أن تدخلها رقَّةٌ، فقطعت على مُريّة الكلام بأن قالت: يا أم أمير المؤمنين، اتَّقي الله أن تدخلك رأفة بهذه الملعونة؛ فتتبوَّئي مقعدك من النار، ثم التفتت إلى مُريّة فقالت لها: بكِ فدام ما أنت فيه يا مُريّة، كأنك نسيت دخولي عليكِ بحران، وأنت جالسة بصحن دار مروان، على هذا النمط، وتحته هذا البساط، وعن يمين نمَطُك ويساره هذه النمارق ... وقد مثَلتُ في مثل هذا المكان الذي أنت فيه ماثلة، وأنا أسألك وأتضرع إليك في استلاب جثة إبراهيم الإمام من مروان؛ لئلا يمثّل به، وقولك وأنت كالحة في وجهي: ما للنساء والدخول في أمور الرجال؟ ثم أمرتِ بإخراجي من دارك بغلظة ... قال إبراهيم: فالتفتت مُريَّة إلى زينب فقالت لها: كأنك يا بنت سليمان حمدتِ لي عاقبة أمري في قطيعتي رحمي، فأردْتِ أن تزيّني قطيعة الرحم لأم أمير المؤمنين، ثم التفتتْ إلى الخيزران فقالت: صدقتْ زينب فيما ذكرتْ عنّي، وذلك الفعل منّي أحللني هذا المحل، والسعيد مَنْ اتَّعظ بغيره، وانصرفت، فبعثتْ إليها الخيزران ما أعاد إليها (حالها) وكفّ اختلالها"[32]. يتضمن هذا الخبر حضورًا كبيرًا للمرأة، بحيث تهيمن شخصياتها على الأحداث، فقد حرص ابن الدّاية من خلاله أن يورد من الأوصاف الاجتماعية ما يبرهن على القرائن الناعتة لشخصيتي المرأة (الخيزران ومُريَّة) فالأولى قدَّم أوصافها الاجتماعية في مستهَلّ الخبر على لسان الرّاوي، والثانية جعل الوصف عن طريق إحدى الشخصيات النسائية الأخرى، وهي زينب بنت سليمان. وكل النعوت الاجتماعية تليق بمكانة آل دار الخلافة العباسية والأُموية على حدٍّ سواء. وإن برزت شخصية (زينب) وهو ما تجلَّى في الأفعال التي قامت بها في ظل علاقتها بالخيزران ومُريَّة داخل الخبر، فقد حذَّرت الأولى من مغبَّة التعاطف مع حال مُريَّة، في حين أنها بيَّنتْ للثانية سبب تحاملها عليها، فقد ذكَّرتْها بموقف مماثل، حين رجتْها أن تتدخَّل عند زوجها مروان بن محمد؛ لئلّا يمثِّل بجثة إبراهيم الإمام، ولكنها أغلظت لها القول، بل طردَتْها من دار الخلافة بغلظة، كأن الثأر والمعاملة بالمثل كانت هي المحرك لما تقوله زينب وما تأتيه من أفعال.

وبعد أن قامت زينب بأداء مهمة العتاب واللوم التي استحقَّت بها أن يكون لها مكان لدى المتلقّي كان لذلك أثر نفسيّ عميق على الشخصيَّة (مُريَّة) ترجمتها إلى قول ملفوظ "كأنك يا بنت سليمان حمدتِ لي عاقبة أمري في قطيعة رحمي، فأردْتِ أن تزيني قطيعة الرحم لأمّ أمير المؤمنين" ثم التفتت إلى الخيزران قائلة (صدقتْ زينب فيما ذكرتْ عنّي، وهذا الفعل منّي أحلّني هذا المحلّ، والسعيد مَنْ اتَّعظ بغيره) ومن ثمَّ ندرك أن شخصية زينب قد حققت نجاحًا ملموسًا عبر التأثير المؤقت على الخيزران في البداية؛ لرد الصاع الذي ضربته مُريّة صاعين، وكادت أن تنجح في مسعاها لولا شخصية الخيزران العاقلة الكيّسة، التي تأمر بما فيه الخير والعدل (فبعثت إليها الخيزران ما أعاد إليها حالها وكفّ اختلالها). كما يبدو في الخبر تبادُل الأدوار وتبدُّل الحال، حال مُريَّة من العزّ والجاه إلى الفقر والعَوَز، وحال زينب من التوسُّل إلى مُريَّة إلى مكانة اجتماعية مرموقة بالقرب من الخيزران التي صارت وصيفتها، ويمكنها التشاور معها.

وعلى الرغم من تلك المنزلة التي حظيت بها شخصية (زينب) فإنها كانت من أشد الموجودين حقدًا على بني أميَّة، وإلحاحًا على الخيزران ألَّا تشفق على مُربّة، ولكنها - مع ذلك - تحمل من المعاني ما يدلُّ على ما كانت تعانيه من عقدة الظلم التي وقع عليها في الماضي.

رابعًا: الوصف المعنوي

وهو ما يُعنى بأحوال الشخصية المحكيَّة، النفسيّة، والعاطفيّة، والوجدانية ، والأزمات والانفعالات التي تمرُّ بها، سواء أكانت إيجابية أم سلبية.

هذا الوصف ينتج عن الوصفين السابقين: الخارجي والاجتماعي، مما ينتج عنه من "الآثار العميقة التي تبلورت على مرِّ الأيام، فحددت طباعه وميوله، ومزاجه، ومميزاته النفسية والخُلقيّة"[33]. والوصف المعنوي يبنى بوصفه نتاجا للحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان، والمكان الذي نشأ فيه ومدى تأثيره في شخصيته، ومن ثمَّ ندرك مدى أهمية الوصف المعنوي الذي يلجأ إليه القاص في تحليل الشخصيات، واستنباط دواخلها.

وإذا تأملنا شخصيات ابن الدّاية في كتاب (المكافأة) نجد أن غالبيتها شخصيات اجتماعية، لكل منها طموحاتها ونظرتها للحياه، وفي الوقت نفسه تحكمها مجموعة من العلاقات تقرِّب إلينا طريقتها في الحياة، ومن ثمَّ عمد ابن الدّاية إلى الغوص في أعماقها - ما أمكن - لاستبطان ما تحتوي عليه من نوازع وأهواء وصراعات؛ حتى يستطيع تقريبها إلى المتلقي في صورة تكمِّل جوانب الوصف السابقة.

وقد جاءت الأوصاف المعنوية - كغيرها من الأوصاف السابقة - مقتضبة ومُعبِّرة في الوقت نفسه عن الشخصية المحكيَّة.

ففي الخبر الأول من خبر خالد القسري وديوانيانه (أي صاحب الديوان) فعندما سُجن خالد، حرسه - فيمن حرسه - الديوانبان، يخبرنا الراوي عن حالة خالد المعنوية بعدما تلطَّف معه الديوانيان "فأقام أيامًا يأتيه من طرائف الأطعمة والفواكه ما ينسى به وحشته، ويكفُّ فاقته"[34] فهذا الفعل على بساطته كان له تأثير معنوي قوي على خالد القسري، فنسي به وحشته في السجن، كما أن هذا الوصف أوضح العلاقة القوية بين الديوانيان وخالد.

وفي الحالات التي يتوجه فيها ابن الدّاية إلى الوصف الشكلي أو الحسّي منها، فإنه يهدف إلى الكشف عن الصفات المعنويَّة كوصف زوجة أحد التجار في الخبر رقم (28) على لسان زوجها التاجر بقوله: "ما بالبصرة أقبح من أمها – يشير إلى ولديه منها، وكانا في غاية النظافة - ولا أحبَّ إليَّ منها"[35] ثم يأتي وصفها متتابعًا بأنها "كانت أشفق النساء، وأضبطهم، وأحسنهم تدبيرًا فيما تتولاه، فتبيَّنت وقوع الخبر في ذلك ولحقتني السنُّ، فصارت حاجتي إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع، وشكر الله لي ما تلقَّيت به جميل قولها، وحُسن فعلها، فرزقني منها هذين الابنين الرائعين"[36] فهذا الوصف الشكلي يعكس صلاح الحال واتساع الرزق.

ومن أغراض وصف الشخصية المحكيَّة معنويًّا – أيضًا - إبراز صفات التدّيُّن، كوصف إحدى العجائز في الخبر رقم (23) على لسان المؤلف نفسه بقوله: "وكانت تنتاب عجائزنا عجوزجميلة المذهب ضعيفة الحال تُعرف (بأمِّ محمد) فيجتمعن على كل صالحة"[37] فهذا الوصف بصفات دينية إلى جانب صفات شكلية كالعمر وضعف الحال - تعظيم من شأن تلك الشخصيَّة المحكيَّة، وتنبيه النساء ألّا يجتمعن إلَّا على كل ما هو خير وصالح. فالصفات المعنوية السابقة رهينة بالسياق الذي تضمّنها فتشير إلى طبيعة الأحداث بالشخصية الموصوفة، كما تصوِّر النموذج العام لشخصيات كل قسم

من أقسام الكتاب، وإن كانت صفة الطِّيبة هي أكثرها، مما يدل على الطبيعة الداخلية لهذه الشخصيات. صوَّرت أخبار الكتاب - أيضًا - المشاعر الداخلية التي تحرِّك الشخصيَّة المحكيَّة وتدفعها إلى القيام بأفعالها المتعددة، كما هو الحال في شخصية (مسافر)، وشخصية العامل المتسلط التي سبقت الإشارة إليهما، وكما في شخصية الفضل بن يحيى البرمكي في الخبر رقم (63) الذي وصفه وأهله كاتبه بقوله بعدما أوقع الرشيد بهم: "والله ما بكائي لجلالة أخطارهم، ونفاسة أقدارهم، ولقد كان لصاحبي في الجمعة السالفة ما لم أسمع بمثله لقديم أو حديث، قال لي: "قد كثر الزوّار علينا، فانظر مقدار من انصرف' وارفع إليَّ عدة من بقي من الزوَّار؛ لأتقدَّم في برِّهم، واحذر أن ترفع إليَّ رجلًا من أهل الشام"[38] فهو يخشى أن يصل برّه إلى رجل من بلاد الشام معروف عنه التعصُّب لشيعة عَلِيّ - رضي الله عنه - إلا أن نفس الفضل البرمكي المجبولة على البِرّ دفعته إلى القيام بفعل آخر، ألا وهو وصل ذلك الرجل بما يعادل المبلغ الذي وصل به غيره وبرَّهم به "قم فادفع إليهم الخمسة عشر ألف ولا تعذلني، فالخطأ في الجميل أحسن من الصواب في القبيح".[39]

إن مشاعر الخوف والحزن تُخيّم على الشخصية المحكيَّة عند ظهور احتمال لضرر يوقعه بطالبي المعروف، مما يشير إلى مدى حرصه على وصل الجميع، واهتمامه القوي باغتنام أيام عزّه وَجاهِه. ولا شك في أن الوسائل الوصفية السابقة التي اعتمد عليها ابن الدّاية في بناء الشخصية في كتابه قد ساعدت في الكشف عن جوانبها المتعددة، وجعل بعضها مكمِّلًا للآخر، في محاولة منه أن يخلق من شخوص أخباره "أناسًا خالدين لا ننساهم، بل تظل شخوصهم حيَّة في أذهاننا"[40].

وهذا مانجح فيه ابن الدّاية إلى حد بعيد، فقد أحاط بشخصياته من كل جانب: اسميًّا، وشكليًّا، واجتماعيًّا، ومعنويًّا، فهو يحاورها وتحاوره دون أن يفرض عليها سلوكًا معيَّنًا، وإنما جعل أفعالها تبعًا للنعوت والقرائن التي تدلُّ عليها، ولعلَّ هذا ما يستطيع المتلقي فهمه واستنباطه بسهوله، مما يعكس نجاح ابن الدّاية في وصف الشخصيات المحكيَّة.

المبحث الثاني: التصوير

أشرنا في المبحث الأول إلى مدى أهمية الوصف ودوره - وإن كان مقتضبًا – في بناء الشخصية المحكيَّة في (كتاب المكافأة) ويهتم المبحث الحالي بطرق تصوير الشخصيّة التي لجأ إليها ابن الدّاية في بناء الشخوص المحكيَّة في كتابه، بوصف هذه الشخصيات نماذج بشرية، تُعد ترجمة لما يراه ابن الدّاية في الواقع، دون أن يفصل هذه النماذج عن بيئتها ومكانها، واللغة التي تتحدّثها[41] أي إن ابن الدّاية - من خلال تصوير الشخصيات المحكيَّة - كان يجسِّد أزمات الفرد الأخلاقيَّة والماديَّة في المجتمع المصري - وفي غيره - في الفترة التي عاصرها، كما يجسّد في الوقت نفسه مفاهيمه بالنسبة للأسس التي تُكوِّن سمات الشخصيَّة المحكيَّة. وسوف نهتم في هذا المبحث بدراسة الجوانب المتعددة في تصوير الشخصيَّة فنيًّا؛ إذ تؤدي إلى تكوين نظرة شمولية عنها، بينما الاقتصار على أيٍّ منها يسبب قصورًا في تناولها وتحليلها.

أولًا: التصوير المباشر

يعد التصوير المباشر أكثر الطرق شيوعًا في فن الحكي عمومًا، التي يتولى فيها التصوير راوٍ غائب، وهذا ما أجده في كتاب (المكافأة) في غير موضع، حيث يتولى التصوير المباشر راوٍ عليم غائب يرى ويعلم أكثر مما تراه الشخصية المحكيَّة، وله موقف محدد من المروي يحاول الإعلان عنه؛ عن طريق تفسير الأفعال وتعليلها، والحكم على الشخصيات وتقييمها،

فهو "الذي يُحرِّك الشخصيات، ويعرف ما يدور في الداخل والخارج بالنسبة لجميع الشخصيات، وقد يظهر – أحيانًا - من خلال بعض الآراء التي يُقدِّمها، والأحكام التي يطلقها"[42].

وإذا كان للراوي هذه الأهمية في الحكي، فإنه ذو طابع خاص في كتاب (المُكافأة) حين تتفاعل عناصر الحكي جميعها معًا، من شخصيات تتعايش وتتصارع في أماكن تشهد أحداثها، ومع أشياء عدّة تملأ هذه الأماكن، وفي زمان خاص، قد يؤثر عليها أو تتأثر به، أو يتمثّل هو داخلها، رجوعًا إلى الماضي أو قفزًا إلى المستقبل، فإن الراوي يختلف في تفاعله مع هذه العناصر خاصة الشخصيات المحكيَّة؛ فيبدو متحكِّما فيها، فيتخيّل الوقت المناسب الذي تظهر فيه الشخصية، ويمكِّنها من القيام بأفعالها، أو يجعل الشخصية تتحدث عن نفسها، أو يتحدث غيرها من الشخصيات عنها، أو يتولى هو هذه المهمة عند حكايته للخبر الذي يقصُّه. والخبر يجمع بين اللغة والكلام الفني؛ لأن الخبر "درجة ثانية من درجات تحريف الواقع، إذ إن غاية الأديب ليست نقل الواقع إلى القارئ، وإنما هي إحداث أثر في نفس هذا القارئ ناشيء من طريقة التعبير عن الواقع، لا من خصائص الواقع نفسه"[43].

وقد استعان ابن الدّاية بالتصوير المباشر - من خلال الراوي العليم الغائب - في بناء بعض الشخصيّات المحكيَّة، وهو تصوير لا يأتي لكشف بعض أبعاد الشخصيّة فقط، وإنما يأتي لتحقيق أغراض أخرى، منها إظهار التناقض الشديد بين صفات الشخصية المحكيَّة من ناحية، وبين أفعالها وما تبطنه من ناحية أخرى، وهنا تكون المفارقة أعمق وأشمل "لكن هذا لابد أن يتم من خلف ستار بلا وعي من جانب القصاص نفسه إلى الحد الذي يبدو معه، حتى له هو، وكأن الشخصية هي التي تتصرف من تلقائها"[44].

وقد سلك ابن الدّاية في بعض أخبار كتابه هذا المسلك، فمثلًا في الخبر رقم (41) من حكاية مولى للعباسيين وأمويّ، فبعد أن وصفه الراوي بأنه (حسن الصورة لين العريكة) نجد أن أفعاله وما تُسرِّه نفسه من حقد وشر على الأمويين تناقض الوصف السابق حينما تولَّى أمر حمص.

"فلما دخلها قصد إلى دار رئيس كان بها - من أصحاب بني أميّه - فذبحه فيها وجماعة من غلمانه ثم خرج"[45] فقد صوَّر الراوي أفعال مولى العباسيين تصويرًا مباشرًا، حيث عمد إلى تصوير شخصية المولى العباسي بالقسوة الشديدة، الأمر الذي يبرز قبح أفعاله.

ونلحظ - على قلة - بعض الثنائيات الضدية، أو التناقض في صفات بعض الشخصيات، كما في الخبر رقم (46)، بين خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون ومحمد بن أبي الساج، الذي هادن خُمَارَوَيْه، وأقسم بأغلظ الأيمان ألا يحاربه، وتكاتبا على هذا العهد، بل وصل الأمر أن ترك ابنه رهينةً عند خمارويه، ولكنه خان ما تعاهد عليه، وغدر بابن طولون، فهذا مثال للشخصية المخادعة التي تُظهر غير ما تُبطن.

الأمر نفسه نجده في الخبر رقم (43) بين مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وخالد بن سهم الذي اعترف بمداهنة الخليفة وخداعه، فلم يكن له ناصحًا أمينًا، واعترف هو بذلك في قوله: وكنت أداجِنُه ويسرُّني حؤُول أمره .. حيث أراد التَّشفي فيه؛ لأنه حبَسَه في الماضي وأطال حبسه ليأخذ جاريته.

ويبدو أن الغاية التعليمية والأخلاقية قد طغت على ابن الدّاية، فجعلته يتدخَّل؛ ليدلي ببعض النصائح التي تحبب المتلقي إلى فعل الحَسن وترْك القبيح، كما في الخبر رقم (8) من ضرورة إنزال الناس على قدر منازلهم، حيث يتدّخل ابن الدّاية مُعلِقًا على علاقة القاسم بن شعبة، وأحمد بن طولون بقوله: "وكان شعبة من أكابر وأصحاب أحمد بن طولون، ومات في طاعته، فردَّ إلى القاسم ابنه إحدى الشُّرطتين بمصر"[46] ويبدو أن التصوير المباشر السابق لمكانة القاسم عند

ابن طولون، واستمرار مكانته بعد وفاته في عَقِبِه، جعل من ابن الدّاية مسيطرًا على عالم الحكي من ناحية، وجعله - فيما أظن - يقصد في الثناء على ابن طولون ورجالاته قصدًا؛ طلبًا لرضا ابن طولون ورجاله من ناحية أخرى.

ومن التصوير المباشر- أيضا - تدخُّل ابن الدّاية بالوصف المسبق للشخصيَّة المحكيَّة، مع أن الأحداث سوف تكشف عنها تباعًا، كما في الخبرين (37، 38) بوصفه لعامِلَيْ الصَّدقة بالظلم، وأخذ حقوق الصدقة بغير حق، والبعد عن الرأفة[47] فمثل هذه التَّدخُّلات المباشرة تقطع تسلسل الأحداث حول هذيْن العامليْن، والطرق التي يتَّبعانها في جمع المال، حيث يجمد عالم الحَكْي في انتظار فراغ ابن الدّاية من الإدلاء بوجهة نظره المسبقة حولهما، وكل ذلك يسلب التصوير أفضل ما فيه - كما أظن - وهو اندماج المتلقي في عالم الحَكْي.

ويتدخَّل الراوي العليم – كذلك - في الخبر رقم (55) فبعد أن ذكر الراوي خبر موت الإخباري وأثره على ولديْه، يتدخَّل الراوي بالتصوير المباشر قبل الدخول في محتوي الخبر ليقول: "إن ابنَيْ عمر لمّا مات أبوهما، وكان من رجال دولة المتوكَّل، همَّ المتوكِّل بمصادرة أمواله، فعزما أن يجعلاها وديعة عند شيخ كانا يريان فيه الصلاح، وحُسن المذهب، فكانا يبعثان إليه بالشيء بعد الشيء ممّا تخلَّف عن تلك الوديعة، وعجوز تختلف بذلك، لها ولد يتشطَّر، ويلعب بالحمام،فوردت عليهما بدرة دراهم وقد انتهى بهما السعي في الإبداع"[48] ويبدو أن الهدف من تدخُّل الراوي بالتصوير المباشر السابق، قبل الولوج إلى الحكاية الأصلية للخبر - ابنا الأخباري والغلام - هو بيان هيئة العلاقة بين ابنيْ الإخباري ووالد ذلك الغلام.

إن مثل هذا التَّدخُل بالتصوير المباشر من قبل الرَّاوي قطع تسلسل الأحداث في حكايات الأخبار الواردة فيها، ممّا كان له أثره المباشر على المتلقي الذي فقد التواصل مع الأحداث، والاندماج فيها. وإن كان يخفف من حدَّة تدخُّل الراوي بالتصوير المباشر للشخصيات، أن ابن الدّاية قد سمح للشخصيات المحكية بالحديث عن نفسها من خلال الحوار - كما سنوضح - ممّا يُعدُّ اعترافًا صريحًا منه بوجود أكثر من صوت أو راوٍ داخل الخبر الواحد.

ثانيًا: الحوار:

يعد الحوار الوسيلة الثانية التي استعان بها ابن الدّاية في تصوير الشخصيات المحكيَّة داخل كتاب (المكافأة) فقد يكشف الحوار بشكل مباشر عن سمات الشخصيَّة المحكيَّة، حيث يتضمّن معلومات تقدِّمها الشخصية عن نفسها، أو تقدمها شخصية محكيَّة عن أخرى.

وقد لا يقدِّم الحوار تصويرًا مباشرًا عن الشخصية المحكيَّة، ولكن يُستدلُّ عليه من خلال ما تنطق به الشخصية؛ فندرك عندئذٍ قدرتها العقلية، ومستوى تفكيرها، وصفاتها الخُلقيّة والنفسية نري ذلك جليًّا في الحوار بين شخصيتين - وهو الغالب في الكتاب - وقد تنوَّعت طبيعة هذا الحوار بين الطول والاقتضاب، بحيث تتحدث الشخصية الأولى إلى الثانية بجملة، أو مجموعة جمل تبريرًا، أو تفسيرًا، أو إجابة، أو إثبات صحة أمر، أو بطلانه.

ويأتي الديالوج في كتاب (المكافأة) لتصويرالأطر المختلفة للشخصيات المحكيَّة، فينطق بمكنون نفسها، ودلت حواراتها على ما تتبناه من أفكار وآراء، وما تشعر به من أحاسيس ومشاعر، وما تسعى إليه من أهداف.

وتأتي حوارات الشخصيات المحكيَّة في كتاب (المكافأة) لتحقيق أهداف عدَّة منها، تأكيد الإطار الفكري لها، كما في رقم (71) من حكاية سند بن عَليّ، والعباس بن سعيد الجوهري، وما تضمَّنه من تصوير طبيعة هاتين الشخصيتين حول أصول الهندسة للمجسطي[49]، حيث كشف الحوار بينهما عن طبيعتهما التي تميل إلى المناظرة والتسلسل المنطقي، وهو

من الأمور التي كثر انتشارها في العصر العباسي.[50] وفي هذا الحوار يقابل (سند بن عَليّ) كلمات (العباس بن سعيد) وأسئلته بأقوال وإجابات تتسم بالعقلانية والتمكُّن، وقد أكَّد هذا الحوار بشكل واضح الإطار الفكري للشخصيتن.

وقد يأتي الديالوج للكشف عن الميول والأهواء السياسية للشخصية المحكيَّة، كما في الخبرين (29، 30)، حيث كشفا عن ميل (هرثمة بن أعين) و(إبي يوسف القاضي) للرشيد، حيث رفضا كلاهما - وفاءً للعهد - موافقة الهادي خلع الرشيد من ولاية العهد، فقد قدَّما إليه النصائح السياسية المتصلة بالحكم، وما ينبغي أن يكون عليه وزراؤه وحاشيته.[51]

وقد بدا ابن الدّاية في تلك الحوارات الخارجية ممتلكًا لمسوغات تكمن خلف هذا الإكثار منها، حيث دارت هذه الحوارات في بلاطات الحكم وغيره حول بعض الأمور السياسية والفكرية والأدبية والأخلاقيَّة المتعلقة بمضمون كتاب (المكافأة) وغايته الإصلاحية، ومثل هذه الحوارات تحاكي واقعًا خارجيًّا تطول فيه المناقشات أو تقصر حول أمر ما، وهؤلاء الأشخاص المتحاورون يتسمون – غالبًا - بالفصاحة والقدرة على الحجاج والإقناع، ومن ثمَّ كان طبيعيًّا أن تدور على ألسنتهم هذه الحوارات - طالت أم قصرت - الكاشفة والعاكسة لطبيعتهم، والملائمة للغة التي ينطقون بها، حسب المستوى الفكري والاجتماعي، بلغة فصيحة وأسلوب بليغ، ممّا كان يقصد لذاته في عصر ابن الدّاية، وتهفو إليه نفوس العامة والخاصة، ولا تحسّ فيه ثقلًا ولا رتابة. فالكتابة لم تكن "مجرد تعبير مباشر عن الأغراض، وإنما هي إلى جانب ذلك فن يقصد به الإمتاع النفسي"[52].

وتتضمَّن الحوارات التي تدور بين الشخصيَّات داخل أخبار كتاب (المكافأة) بعض أبيات من الشعر، التي تأتي – غالبًا - جزءًا أساسيًّا من نسيج الحدث، تسهم في صُنعه وتطوُّره، كما قد تكون أبيات الشعر جزءًا من حوار يكشف عن حال الشخصيَّات، كما في الأبيات التي كتبها ابن الدّاية في المخفرين من القيسية الذين حرسوه إلى الفسطاط مقابل عشرين دينارًا، فلما سمعوا شعره فهم أعجبهم، وأعادوا إليه أمواله، ممّا يكشف عن طبيعتهم الفكريَّة، واستعظامهم للشعر في مقابل المال[53].

وقد مال ابن الدّاية إلى الحوارات الخارجيَّة بكثرة، واعتمد عليها - بصورة كبيرة - في تصوير الشخصيات المحكيَّة، وإن كان هذا لا ينفي اعتماده على الحوار مع الذات (المونولوج) في بعض المواضع؛ لتجسيد الصراعات التي تدور داخل الشخصيَّات عاكسة حيرتها في بعض الأمور، أو إعجابها بفعل ما، أو عزمها على القيام بشيء ما. فالمنولوج الداخلي – إذن - هو التقنية التي من خلالها تتضح لنا الشخصية، وندرك محتواها النفسي، ووعيها، ونقدها الذاتي، وصراعها مع نفسها أو مع الآخرين، وبالتالي يسهل تفسير سلوكها الخارجي.

ومن الحوارات الكاشفة عن موقف الشخصيات المحكيَّة في كتاب (المكافأة) ما جاء في الخبر رقم (33) الذي يدور في نفس (فيروز) بعد هزيمته أمام ملك (الهياطلة) الذي أطلق سراحه في مقابل عدم معاودة قتاله، وجعل بين المملكتين حَجَرًا لا يتعداه "وحدَّثته نفسه بمعاودة قتاله، فخرج إليه، وسوَّلت له نفسه أنه إذا حمل الحَجَر حتى يدخل به بلد (الهياطلة) لم يحنث في يمينه."[54] فهذا الحوار كان سبب العداوة، ومواصلة القتال بين فيروز وملك الهياطلة، إذ يُظهر هذا الحوار عزم فيروز وإصراره على الحنث في يمينه، ونقض الاتِّفاق، ومقابلة إحسان ملك الهياطلة له بالإساءة. والحوار السابق يخدم الأحداث، ويسهم في بنائها، ودفْعها إلى الأمام، حيث أدَّى الحوار الذاتي إلى تجدُّد القتال، وقُتل فيروز في المعركة عقابًا له على قبيح فعله.

وهناك من الحوارات الداخلية ما يخدم الأحداث والغاية السياسية في الوقت نفسه، مثل الحوار الذي يُحدِّث فيه (الهادي) نفسه في الخبر (29) "بخلع (الرشيد)، وحمل الناس على تقلّد ابنه العرش بعده"[55] فهذا الحوار يكشف ما يتمتَّع به الهادي من سطان وقدره، وهو ما يجعل المتلقي يتوقَّع منه إجابة الناس إلى طلبه، فيما عدا (هرثمة) الذي رفض طلبه - ردًّا لجميل الرشيد - الذي شفع له عند المهدي، عندما أمر بنفْيِهِ إلى المغرب الأقصى.

وهناك حوارات داخلية لا تخدم الأحداث، ولا تكشف عن طبيعة الشخصية، وإنما تأتي لخدمة غاية خارجيَّة مثل الحوار الذي يدور في نفس (بشر المريسي) في الخبر رقم (31) بعد أن استطاع (أبو يوسف القاضي) الفقيه أن يصلح بين (الرشيد) وابن عمِّه (محمد بن جعفر بن المنصور) في شأن الجارية (بَذْل)، من قوله محدِّثًا نفسه "فقلت في نفسي: أحيا نفسًا، وأصلحَ بين الخليفة وابن عمِّه في مقدار ساعتين من النهار".[56] فهذا الحوار لا يؤثر في بناء الأحداث، أو في تصوير الشخصية المحكيَّة، ويُساق - فقط - للإشادة والثناء بشخصية (أبي يوسف) العاقلة الفقيهة العالمة، التي يجب الاطمئنان إلى أقواله.

هذه الحوارات الداخلية - على قلَّتها - تأتي مهمة في موضعها؛ إذ تكشف ما يدور في نفوس الشخصيَّات حين لا تكون هناك إمكانيَّة للكشف عنها عن طريق الحوار الخارجي.

ثالثًا: الشخصيَّة من خلال الحدث

الوسيلة الثالثة التي يلجأ إليها ابن الدّاية في تصوير الشخصية، تكمن فيما تقوم به الشخصيَّة من أفعال في أثناء الأحداث؛ لأن الشخصية المحكيَّة يجب أن تُقدَّم من خلال قيامها بالعديد من الأفعال التي تشكل عالَمَها الحكائي؛ لأن "وحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصيَّة وهي تعمل[57] ومن الملاحظ - كما أشرنا في المبحث الأول- أن الشخصية المحكيَّة في أخبار (المكافأة) لم تحظ بدقَّة الوصف الخارجي أو الداخلي واستقصائه، وإنما مال (ابن الدّاية) إلى الاقتضاب القائم على الاختيار والانتقاء، وفيه "تكون الشخصية بمثابة دال، من حيث إنها تتخذ عدَّة أسماء أو صفات تُلخِّص هويَّتها".[58]

وعلى الرغم منذ ذلك، فإن الشخصيَّة المحكيَّة في كتاب (المكافأة) اتسمت - في معظمها - بالدِّقة فيما يختص بتصوير أفعالها، والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، سواء أكانت هذه الأفعال بسيطة أم معقَّدة، بحيث صارت الشخصية المحكيَّة بمثابة مدلول أي "مجموع ما يُقال عنها بواسطة جُمل متفرِّقة في النَّص، أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها"[59] مهما تفاوتت الفترات الزمنية التي تستغرقها، ومهما تفاوتت المكانة الاجتماعية للشخصيات المحكيَّة، فأخبار الكِتَاب رفعت ذكر شخصيات بعْدَما كانوا من العامة الذين لا يُلتفت إليهم ولا يهتم بهم أحد.

ومن أوضح هذه النماذج شخصية وزير مَلِك (الهياطلة) ومعالجته أمر عزم فيروز اجتياح بلاده، فأشار على الملك باستعمال الحيلة بقوله: "أيها الملك، إن يسير الحيلة ربما بلغ أوفى منازل المكافحة، والذي عندي من الرأي أن تُظهرالسخط عليَّ؛ فتقطع يديَّ ورجليَّ، وتنفيني إلى أقاصي عملك، وتكتب إلى عاملك هناك في حبسي، وتظهر أنك تبيَّنت مني ميلًا إلى فيروز"[60] فمعالجة الوزير للموقف تدلُّ على حُسن موقف، ورجاحة عقل، وإيثار الآخرين، وتقديم مصلحة الوطن على الذات، ووعي مسؤلية الوزارة التي تولَّاها، وقد نجحت حيلته، فقدم إلى (فيروز) واشتكى له سوء صنيع الملك به، فاطمأن إليه (فيروز) وسَكَن، وأخذ برأيه، فسلك طريقًا لا ماء فيه ولا نبْت "فتساقطتْ الدَّوابُّ من العطش وافترق الجيش لطلب الخلاص، وخرج عليه منسر من جيش (الهياطلة) فأمروا عليهم وأخذوا فيروزًا أسيرًا".[61]

ومن هذه الأفعال – أيضًا - ما جاء في الخبر رقم (40) من تصرُّف رجل من أشراف المدينة مع رجل من أولياء الأمويين، كان مريضًا فقيرًا لا مكان يأوي إليه، فأخذه الشريف إلى بيته، حتى تعافى ورجع إلى دمشق، فلمّا قدم مع جيش (يزيد بن معاوية) ودارت معركة (الحرَّة)، وانتصر جيش (يزيد) إذ بهذا العامل الأموي يهجم على دار الشريف، ويأخذ كلَّ ما فيها من الأثاث والأموال، فقابل الإحسان بالإساءة"[62] فهذا الفعل يدل على الخِسَّة، ودناءة النفس وقبحها.

ومن الشخصيات التي تكشف أفعالها - التي تقوم بها في سياق الأحداث - عن ملامحها، شخصية المرأة في الخبر رقم (27)، فهي المرأة الحكيمة العاقلة التي أخذت بلُبِّ زوجها التاجر - رغم قبحها - بسبب حُسن تدبيرها لأمور بيتها، ورعايتها لزوجها وأولادها.[63]

وقد يلجأ (ابن الدّاية) إلى تصوير العقاب الذي تستحقه الشخصيَّة المحكيَّة جزاءً لأفعالها – مهما اختلف صور هذا العقاب - نحو ما جاء في الخبر رقم (36) عندما أمر (أحمد بن طولون) بضرب غلمان (أبي عبد الرحمن العُمري) خصمه بالسياط والشِّدوخ - رغم أنهم قتلوا له خصمه - حتى ماتوا وأمر بدفن رأس أبي عبد الرحمن"[64]. فهذا الفعل يدل على حُسن ذكاء ابن طولون وفطنته؛ فقد رأي في هؤلاء الغلمان صورة من صور الغدر والخِسَّة بسيدهم، للتقرب إليه، وطلب المزيد من الحظوة لديه، ومن ثمَّ فلا أمان لهم. كما يكشف أمره بدفن رأس خصمه إلى تقديره له، وإنزاله المنزلة التي يستحقها.

إن تعدُّد صور كلِّ فعل من هذه الأفعال التي قامت بها الشخصية المحكيَّة في (المكافأة) وتنوُّعها، لدليلٌ على تشابك عالم الشخصيات، الذين رفعوا في كل قسم من أقسام الكتاب الشعار الذي تستحقُّه، فأتوا بأفعال تتناسب مع مضمون الخبر .

الخاتمة:

عُني هذا البحث بدراسة (بناء الشخصية في كتاب المكافأة وحُسن العُقْبى) سواء في جانبها الوصفي أم التصويري، وهي عنصر تكويني مهم في البناء الحكائي للكتاب، حيث كانت وسيلة فعَّالة بِيَدِ (ابن الدّاية) لتجسيد رُؤاه للكون والمجتمع من حوله، كما أنها كانت مهمة للمتلقي، الذي يجذبه المحتوى الحكائي الممتع والمقنع في الوقت نفسه.

ويلتقي الباحث في كتاب (المكافأة) بعالم زاخر من الشخصيات المتعدِّدة المعاصرة (لابن الدّاية) أو السابقة عليه، وكلها شخصيات لها علاقة حميمية بالعالم الإخباري الذي يصوره الكِتَاب.

ومن خلال تناول الكيفية التي اعتمد عليها ابن الدّاية في بناء هذه الشخصيات، توصَّل الباحث إلى نتائج عدَّة من أهمها:

1- كتاب المكافأة نموذج للشخصيات الإنسانية والاجتماعية معًا، فالجانبان مقصودان في أخبار الكتاب، فكلاهما وسيلة للآخر، فلا إمكانية للعبور إلى ما هو اجتماعي إلا بالمرور بما هو إنساني، ومن خلال ذلك تتضح دلالة عناوين أقسام الكتاب (المكافأة على الحسن/ المكافأة على القبيح / حُسن العُقْبى) في تحديد طبيعة التجربة التي تحياها الشخصيَّات المحكيَّة.

2- بعدت الشخصيات المحكيَّة في الكتاب، عن الغرابة والخرافة والمبالغة في الأسطورة، ومن ثمَّ فلا غرابة في أفعالها ولا يرفضها عقل المتلقي، ولذا فالأفعال التي قامت بها الشخصيات في الكتاب جاءت واقعية بعيدة عن المبالغة.

3- اللغة التي استخدمها ابن الداية في وصف شخصياته ركيكة إجمالًا.

4- الشخصيات في الكتاب، من النوع العادي البعيد عن البطولة الخارقة، فالشخصيات لا تحمل أيَّة سمة تميزها عن غيرها من الشخصيات الموجودة في الواقع المصوَّر. وجاءت الثنائيات الضدية داخل الخبر قليلة جدًّا.

5- كتاب المكافأة يُعد لونًا من ألوان التعبير عن الواقع الاجتماعي المأزوم الذي تعيشه بعض الشخصيات، وإن لم يفقدها الأمل في إصلاح واقعها المأزوم.

6- على الرغم من اختلاف الشخصيات في كتاب (المكافأة) وتعددها فكريًّا، وسلوكيًّا، فإن ابن الدّاية استطاع أن يربطها بالعالم الخارجي من حولها؛ فاتصلت الشخصية المصرية المحورية بقضايا أمتها الكبرى، وما تموج به الأمة من أحداث سياسية، واجتماعية، واقتصادية ألقت بظلالها عليهم.

7- اعتمد ابن الدّاية في بناء الشخصية المحكيَّة في كتابه على أمرين: الأول، وصف الشخصية داخليًّا وخارجيًّا. والثاني، تصوير الشخصية، وقد غلب على الأمر الأول الاقتضاب، فيما جاء الثاني بشكل يغلب عليه الاستفاضة والتفصيل.

8- ألقت الغايات الإصلاحية والتهذيبية التي تقف خلف الكتاب بظلالها على اختيار الشخصيات وتوظيفها، فجاءت معظم الشخصيات منتمية إلى العامَّة المحيطين بابن الدّاية، ومن ثمَّ تمكَّن من وصفهم، وتصوير أفعالهم بصورة أقرب ما تكون لشرائح كاملة من البشر في كل زمان ومكان.

9- إن ابن الدّاية كان رهنًا - إلى حد كبير- بالمكان والزمان الذي عاشت فيه الشخصيَّات، ومن ثمَّ استطاع أن يكشف عن أبعاد الشخصيات المحكيَّة بطريقة سلسة لا غموض فيها.

وأخيرًا أوصي الباحثين بالاهتمام بكتب التراث العربي ودراستها؛ حيث إن تراثنا لا يزال بحاجة إلى كشف جوانب الإبداع فيه، تاريخيًّا، وسرديًّا، وأدبيًّا.

الهوامش:

1 - محمد غنيمي هلال، المواقف الأدبية، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1992، ص51.

2 - ناصرالموافي، القصة العربية عصرالإبداع (دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري، دارالنشر للجامعات، 1997، ص44.

3 - سيد محمد السيد قطب، بناء السرد والخبر في إبداع المحسن التّنوخي، دراسة لغوية أسلوبية، رسالة دكتوراه، كلية الألسن، جامعة عين شمس، 1993،ص22.

4 - انظر، فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمد علي، تونس، 2001، ص56.

5 - محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص225.

6 - هو أحمد بن يعقوب بن إبراهيم، وشهرته (ابن الدّاية) نسبة إلى والدة أبيه داية الأمراء، كما اشتهر بالكاتب؛ لانتمائه إلى طبقة الكُتَّاب في عهد الدولة الطولونية، لا تُعرف سنة مولده على وجه التحديد، فقيل إنها بين عامي 240هـ ،245هـ، ولم تُعرف - أيضا- سنة وفاته، فقيل 330هـ، وقيل340هـ، وقد خلَّف تراثًا ضخمًا نذكر منه: سيرة أحمد بن طولون، سيرة أبي الجيس خماراويه، أخبار غلمان بني طولون، المكافأة وحُسن العُقْبى .... وغيرها وقد طُبع الكتاب أكثر من مرّة أولها سنة 1914، تحقيق، أمين عبد العزيز، و1940، تحقيق: محمود شاكر، و1941، تحقيق: أحمد أمين وعلي الجارم، و2001، تحقيق: علي محمد عمر، الصادرة عن مكتبة الخانجي بالقاهرة، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها؛ لنهجها العلمي السليم في التحقيق، وقد ذكر المحقق في المقدمة، حياة ابن الدّاية ومؤلفاته، وطبعات كتابه (المكافأة وحُسن العُقْبى) الذي اشتمل على ثلاثة وسبعين خبرًا، في ثلاثة أقسام، تناول في الأول، المكافأة على الحسن في (32) حكاية، ذكر المحقق أنها (31) حكاية، وهذا خطأ منه. والثاني: يدور حول المكافأة على القبيح في (21) خبرًا، والقسم الأخير: يدور حول حُسن العُقْبى، ويضم (19) خبرًا. انظر، أحمد بن يوسف الكَاتِب، كتاب المكافأة وحُسن العُقْبى، حرَّره: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، ط2، 2001، ص4-14.

7 - الطاهر أحمد مكي، القصة العربية دراسات ومختارات، دار المعارف، 1992، ص46.

8 - تعدد تعريفات الشخصية وأهميتها، وتصنيفاتها، لاختلاف المُهتمِّين بها تبعًا لتخصص كلٍّ منهم، ولذا ارتأيتُ عدم الخوض فيها؛ لأنها قد تُخرج البحث عن مضمونه.

9 - انظر، سيد محمد السيد قطب، أحمد بن يوسف الكاتب وكتابه المكافأة وحُسن العُقْبى، رسالة ماجستير، كلية الألسن، عين شمس، 1989.

10 - المكافأة، ص3، المقدمة.

11 - ناصر الموافي، القصة العربية عصر الإبداع، سابق، ص265.

12 - المكافأة، ص96،97.

13 - محسن جاسم الموسوي، سرديات العصرالعربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997، ص67-68.

14 - شكري عياد، فن الخبرفي تراثنا القصصي، مجلة فصول، مج2 ،ع4، يوليو – سبتمبر 1982، ص18، وانظر – أيضًا - المعنى نفسه، سيد قطب محمد وآخرون، فن الخبر القصصي، دراسة تأصيلية في بدايات الدراما العربية، دار الهاني للطباعة، 2002، ص17-18.

15 - طه وادي، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، 1994، ص114.

16 - شكري عياد، القصة القصيرة في مصر، دراسة في تأصيل فن أدبي، دار المعرفة، القاهرة، 1979، ص23.

17 - شكري عياد، فن الخبر في تراثنا القصصي، سابق، ص17.

18 - المكافأة،ص64 ،77.

19 - المكافأة، ص12.

20 - المكافأة، ص56.

21 - انظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) دار المعارف، 1999، ص97، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص38 ،39، 43.

22 - المكافأة، ص26.

23 - السابق نفسه، ص35، 36.

24 - جوزيف شريم، دليل الدراسات الأسلوبية الدراسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص16.

25 - المكافأة، ص31.

26 - السابق نفسه، ص32.

27 - السابق نفسه، ص62.

28 - السابق نفسه، الصفحة نفسها.

29 - السابق نفسه، ص66 ،67.

30 - انظر، علي أحمد باكثير، فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مكتبة مصر، 1985، ص74.

31 - المكافأة، ص21.

32 - السابق نفسه، ص 76 ،77.

33 - علي أحمد باكثير، فن المسرحيَّة، سابق، ص74.

34 - المكافأة، ص6.

35 - السابق نفسه، ص47.

36 - السابق نفسه، ص49، 50.

37 - السابق نفسه، ص42.

38 - السابق نفسه، ص 97 ،98.

39 - السابق نفسه، ص98.

40 - عبد الحميد جودة جودة السحَّار، القصة من خلال تجاربي الذاتية، دار مصر للطباعة، د.ت، ص81.

41 - انظر، صبري حافظ، الحداثة والتجسيد المكاني، مجلة فصول، مج4، ع4، 1984، ص 173.

42 - طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، 1996، ص148.

43 - انظر، جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص179.

44 - إبراهيم عوض، نقد القصة في مصر (1980،1998) مكتبة زهراء الشرق، 1998، ص279.

45 - المكافأة، ص 66، 67.

46 - السابق نفسه، ص17.

47 - انظر السابق، ص62، 63.

48 - السابق نفسه، ص85.

49 - السابق نفسه، 111 ،112.

50 - انظر، عبد الله التطاوي، الجدل والقص في النثر العباسي، دار الثقافة، 1988، ص48.

51 - المكافأة، ص50- 52.

52 - عبد الحكيم بليغ، النثر الفني وأثرالجاحظ فيه، الأنجلو المصرية، د.ت، ص 166.

53 - لمكافأة، ص 20 ،21.

54 - السابق نفسه، ص 58.

55 - السابق نفسه، ص50.

56 - السابق نفسه، ص53.

57 - رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، الأنجلو المصرية، 1964، ص 30.

58 - حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1991، ص 51.

59 - السابق نفسه، الصفحة نفسها.

60 - المكافأة، ص 56.

61 - السابق نفسه، ص 58.

62 - انظر، السابق نفسه، ص 65، 66.

63 - انظر، السابق نفسه، ص 62.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر:

1- أحمد بن يوسف الكاتب (ابن الدّاية) كتاب المكافأة وحُسن العُقْبى،حرَّرَه، د.علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، ط2، 2001م.

ثانيًا: المراجع:

1- إبراهيم عوض، نقد القصة في مصر (1988-1980)، مكتبة زهراء الشرق، 1998.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

3- جوزيف شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.

4- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة،2000.

5- حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، المغرب،1991.

6- رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، الأنجلو المصرية، 1964.

7- سيد قطب وآخرون، فن الخبر القصصي، دراسة تأصيلية في بدايات الدراما العربية، دار الهاني للطباعة، 2002.

8- شكري عياد، القصة القصيرة في مصر، دراسة في تأصيل فن أدبي، دار المعرفة، 1979.

9- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف، 1999.

10- الطاهر مكي، القصة العربية دراسة ومختارات، دار المعارف، 1992.

11- طه وادي، دراسات في نقد الرواية، دارالمعارف، 1994.

12- طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، 1996.

13- عبد الحكيم بليغ، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، الأنجلوالمصرية، د.ت.

14- عبد الحميد جودة السحار، القصة من خلال تجاربي الذاتية، دار مصر للطباعة، د. ت.

15- عبد الله التطاوي، الجدل والقص في النثر العباسي، دار الثقافة، 1988.

16- علي أحمد باكثير، فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مكتبة مصر، 1985.

17- فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس- القصص، دار محمد علي، تونس، 2001.

18- محُسن جاسم الموسوي، سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، المغرب،1997.

19- محمد غنيمي هلال، المواقف الأدبية، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1992.

20- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

21- ناصر الموافي، القصة العربية عصر الإبداع، دراسة للسرد القصصي، في القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات، 1997.

الدوريات:

1- شكري عياد، فن الخبر في تراثنا القصصي، مجلة فصول، ع4، مج2، 1982.

2- صبري حافظ، الحداثة والتجسيد المكاني، مجلة فصول، ع4، مج4، 1984.

الرسائل:

1- سيد محمد السيد قطب، أحمد بن يوسف الكاتب وكتابه المكافأة وحُسن العُقْبى، رسالة ماجستير، كلية الألسن، جامعة عين شمس.

2- سيد محمد السيد قطب، بناء السرد والخبر في إبداع المحُسن التنوخي، دراسة لغوية أسلوبية، رسالة دكتوراه، كلية الألسن، جامعة عين شمس،1993.